# الحركة الأولى

الناي السحري

أوبرا من فصلين

موسيقا: موتسارت 1791،

وكتب نصها: إيمانويل شيكانيدر

# الحركة الأولى

صباحٌ جديدٌ بلا ساق، يكادُ الممرُ أن يكون خاليًا، الحجراتُ مغلقة على عذاباتها، فتاةُ الاستقبالِ مشغولة بمراجعة الحالات على الكمبيوتر، تُطِلُ لوحاتٌ إرشاديةٌ باردةٌ على الكراسي الفارغة، يدٌ صغيرةٌ تجذبني من قميصي مع صرخة تنبيه، عيناها الضيقتانِ المنحرفتانِ تُحَدِثانني، تهُزُ شعرَها الأسود الفاحم المقصوص من أسفلٍ باستدارة؛ هزات متتابعة، تسحبُها أمها من يدها مُبْتَعِدتين دون اعتذار.. لا أحد يعتذر هنا، فالكلّ - بالكادِ -يحتمل مأساته، والوجوهُ ذات الملامح الواحدة اعتذارٌ كافٍ.

بعض القهوةِ ضرُورة صباحية، أُتابعُ عن كثب الطبيبة أمل، جاءت خِصِّيصًا من أجل حالة الطفل وليد، أفسحتُ لها من أجل أن تُجرب طريقتها في المعالجةِ الفيزيائيةِ مع الموسيقى، لكنها - حتّى الآن - لم تصل إلى أي نتيجةٍ مثلما هو الحالُ معي، حتى إنني أُفكِّر جديًا في تحويل الحالة إلى الاستشارة النفسيّة.

في كلّ مرةٍ يَميلُ نحو أمِهِ، تُجاوبه أن أباهُ في الطريقِ، لكنّه لم يأتِ ولا مرةٍ واحدةٍ، وهي لا تزال تحملُ طفلها، ولا تُخْلِف موعد الجلسات، تجلسُ عن قربٍ متكورة، وعيناها مُتعلقتان بساق ابنها حتى تنتهي الجلسة.

كنتُ يتيمًا؛ غياب أبي غُصَّةٌ عمري، لكنّ أمي كانت ولا تزال لي؛ ما أجمل الأمهاتِ! يغْزِلن الأملَ كلّ صباحٍ، ويُرَتِقْن ابتسامتهن التي مَزَّقهَا الليلُ، الرضى على وجُوههِن يمنحُنا الثقةَ والطمأنينة.

لو أني أملُكُ نايًـــا سِحريًّا كـ"تامينـــو"، أنفخُ؛ فيلتف الأطفالُ حولي،

يرقصون، تنفتح كل الحجراتِ، "بابا جيتو" يُحرِّك لهم أجراسَه السحرية الصغيرة؛ فيختفي الألمُ الذي وَشَمَ وجوهَهم، المُصابون بشللِ الأطفال يقفزون في الهواءِ، أصحاب "متلازمة داون" تتسع أعينهم، ويختفي انحرافُها، وتعتدل ألسنتهم، الأفواهُ التي ظلت بكماء، لا تكف عن الكلام، تملأ الدنيا ضجيجًا حتى تنفجرُ الجدران؛ فنُصبح جميعنا في العراءِ تحت سماء باسمة، ينزعُ الأطفال أجهزتهم التعويضية، يُطَوِّحُونها في الهواء، ويَطِيرُون، يتعلق الجميع بأرديتهم، بعيدًا يَسْبَحون، أينما مَرُّوا تَفَتَّحَتْ أزهارُ في الحدائقِ وعلى الشرفاتِ، حتى إنّ بذرةً شَقَّتْ التربةَ بساقٍ خضراء؛ كان قد زَرَعَهَا طفلٌ منذ عام أمام بيتٍ قديم، لا تراهُ الشمسُ، في أرضٍ لا خَيْرَ فيها.

اسْتِطالِت الأمُ فجأة، الطبيبةُ تُشِير إليَّ وفي عينيها لمعةُ انتصارٍ، أَقْتَرِبُ بهدوءٍ من وليد، عيناهُ متعلقتان بالنافذة، بِرَجُلٍ يعبرُ الحديقةَ، في طريقِه إلينا، وكُلَّما اقترب زادت محاولاتُ وليد في الحركة، وعلى الرغم من أنه لا حركة تَمّتْ بالفعلِ، إلا أن الطبيبةَ أَشْفَقَتْ عليه، كان العرقُ والانفعالُ يملؤه، فطَلَبَتْ منهُ أن يتوقف.

لا تُفلت يدها أبدًا من يدِ وليد، الذي حَمَلَهُ أبوه وخرج به بعد انتهاء جلسة اليوم، وكأنه يراها لأولِ مرةٍ؛ على الرغم من أنها كثير ما فَتَحَتْ البابَ في أثناء جلستنا، وأطَلَّت عليه مُحْدِثَة جلبة، لا يلتفتون لخُطُواتِها القصيرةِ، يتأرجحُ شعرُها الفاحمُ بندولًا، وهي تجري في محاولةٍ للِّحاق بخطواتهم الواسعة متعلقة بقبضة يده.

[ قالوا لا فائدة، لكنني أتيتُ، ما يزالَ عندي أمل].. أحملُ الطفلَ إلى حجرتي، "لا تقلقي يا سيدتي، سنعْبُر معًا غرفةَ الماءِ والنار، نلزم الصمت أحيانًا، نضعُ الأقفالَ في فمِ الكذّابينَ والمُحْبِطينَ؛ ليظلّوا في ليلٍ أبديٍّ، رُبَّمَا تأتي أرواحُ الصغارِ بنهارٍ يمشي على قدميهِ.